وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هى العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشيء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد فى غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا فى نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال فى سبيل الله قد يكون مشقة فى ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففى هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل:

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »(١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى: « قالت السماء: يا ربى إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعِمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لى أن أغرِقَ ابن آدم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »(٢).

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِرُوا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال فى غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفرة : هى الخروج إلى شىء بمهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى. و« سقط على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضَلّ منه ، والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج علي الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِروا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِروا خِفافًا وثِقالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له: إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧]

فقال: والله أُكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم (١) .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له: إنك عليل . فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٠٧٦/٤) وتكثير السواد: تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء [١] في تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة في الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل »، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة إلى آحاد .

والمعنى: أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعنى : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن: كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً في وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أي : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أي : أنه سيدخل في مشقّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه [٢] في سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن: فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهي تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً في ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء في تفسير هذه الآية على عشرة أقوال. ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال: والصحيح في معنى الآية أن الناس أُمروا جملة ، أي : انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت.

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى » .

في الحركة والثقل في المشقة ، أو : أن يكون الذي يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع في الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً في أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتي الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال في قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٦٥]

وهنا يعطي الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أي : أن النسبة هي واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه:

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين في مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فاراً (١) ؛ لأنهم أكثر من النسبة التى قررها الله .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ **انفرُوا خفافًا وثقالاً** ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أى : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين (٢) . ولكن هناك قول آخر فى سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)** ﴾ [التوبة]

أى : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان (٣) بذكرهم أىُّ حرج فى أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التى فرضت على كل مؤمن أن يقاتل فى سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبى نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعيَّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتلٍ أو مكثِّرٍ » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ انفروا خفافًا وثقالاً ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بينا ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن : فهناك مفاعلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَّكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ذَٰلِكُمْ ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل فى اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها فى هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتى «خير» بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفى هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمل فى أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثانى ، والاثنان مَشتركان فى الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه فى سننه(٧٩، ٤١٦٨) والحميدى فى مسنده (١١١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتى لك فاخترنى أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أى : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » [1] وكان التبنى مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغى التبنى وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبنى ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿أَقْسَطُ﴾ يعنى « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْفِ عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطى الصفة الزائدة ويُبقى الصفة الأصلية . وفى الآية التى نحن بصددها ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتى بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل فى صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبى (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد فى تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [(١)] ، جاء له صحابى [(٢)] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال: الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [(٣)] .

(١) قال ﷺ: « ياعبد الله بن عمرو ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتِلَ. أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان . قال الجوزجانى: أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة . وقال البخارى: منكر الحديث . انظر : ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨) . ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى : لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس ؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ ، والقاصد هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل، فلا يستنبط الخير من السعى فى الأرض ومما خلق الله ، وبعض الناس يسرف فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة . والحق هو القائل :

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٦]

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك ؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية ؛ لأن هناك مشقة، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هى رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتي أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكي يعرف رسول الله ﷺ المنافقين منْ صادقي الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعني أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها في المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتي خصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم- للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حُولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة : ١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناها أنهم لم يقولوا بعد، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت في قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان في استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا في التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التي يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفي هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ؛ نجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء في القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . ونقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذى يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[1].

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً فى الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذى لا يهدى للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا ؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم فى حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة .

ويقول الحق عنهم : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم فى الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وكلمة ﴿ عَفَا ﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [1] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [2] ، فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذى (٣٥٧٧) فى سننيهما من حديث زيد مولى النبى ﷺ . قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٢٦٩): «إسناده جيد متصل» وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى.

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه .

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكارى ، وكأن الحق يقول : كيف أذنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدىَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلى للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتى من بعده واحد من عامة الناس ليفتى فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتى كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين فى مسألة الفداء لأسرى بدر[1] ونزل القول الحق:

﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه . إذن فرسول الله ﷺ هُدِى إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم .

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان فى قوله:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة ، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه ؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[2] ، لعدم توافر النية الصادقة فى الجهاد ؛ لذلك ثبطهم[3] الله ، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا . والعفو هنا جاء فى شكلية الموضوع ، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ » . فقال أبو بكر: يا نبى الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم .. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها » وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر وأخذوا الفداء، ولكن نزل وحى الله ﴿ ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب) .

(٣) التثبيط: التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج .

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم[1].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .